الدرس (٠٢٠) من شرح رياض الصالحين

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد للّه رب العالمين، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله، صلى الله وسلم عليه وعلى آله وصحبه أجمعين.

أما بعد:

فنواصل قراءتنا في هذا الكتاب كتاب رياض الصالحين لأبي زكريا النووي رحمه الله تعالى.

يقول المصنف أبو زكريا يحيى بن شرف النووي رحمه الله تعالى:

٤- باب الصِّدق

الصِّدق: هو أن يستوي ظاهر الإنسان وباطنه، بحيث يكون ما في قلبه، وما ينطوي عليه قلبه، مطابقًا لما يقوله بلسانه، أو يفعله بجوارحه، ولهذا: فإنَّ الصِّدق يكون بالقلب واللِّسان والجوارح، فالجوارح تصدِّق ما في القلب.

والمؤمن واجبٌ عليه أن يكون صادقًا، أوَّلًا مع الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في القيام بطاعته، وتحقيق توحيده، وإخلاص الدِّين له، كما قال الله تعالى: ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُواْ مَا عَٰهَدُواْ ٱللَّهَ عَلَيْهِۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُۖ وَمَا بَدَّلُواْ تَبْدِيلًا﴾ [الأحزاب:٢٣]، وأن يكون صادقًا مع عباد الله، متحرِّيًا للصِّدق معهم، ليفوز بثواب الصَّادقين، وعظيم موعودهم عند رب العالمين، وسيسوق المُصَنِّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَى في هذه التَّرجمة جملة من الدَّلائل على ذلك.

والصِّدق منزلةٌ عظيمةٌ جليلةٌ من منازل السَّائرين إلى الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى، وإلى هذه المنزلة ترجع جميع أعمال القلوب، كما أنَّه إلى ضدِّها -وهو الكَذب- يرجع كلُّ فسادٍ يقع في القلب؛ فكلُّ صلاحٍ في ظاهر المرء وباطنه مرجعُه إلى الصِّدق، وكلُّ فسادٍ في ظاهر المرء

وباطنه مرجعُه إلى الكذب، فعاد الصَّلاح والفساد إليهما، فالصَّلاح كلُّه عائدٌ إلى الصِّدق، والفساد كلُّه عائدٌ إلى الكذب.

وهذه الحياة الدُّنيا جعلها الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى دارًا للتَّمحيص والابتلاء حتَّى يتميَّزَ الصَّادق من الكاذب، والمحِقُّ من المبطِل، قال الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿الٓمٓ ۝١ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتۡرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمۡ لَا يُفۡتَنُونَ ۝٢ وَلَقَدۡ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۖ فَلَيَعۡلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعۡلَمَنَّ ٱلۡكَٰذِبِينَ﴾ [العنكبوت:١-٣].

والابتلاء في هذه الحياة الَّذي يتميَّز به الصَّادق من الكاذب يرجع إلى أمرين:

أحدهما: ابتلاءٌ بالشُّبهات القادحَة في العلم والاعتقاد.

والثَّاني: ابتلاءٌ بالشَّهوات القادحَة في الإرادة والعَمل.

فمَن وفَّقه الله جَلَّ وَعَلَا عند ورود الشُّبهات إلى السَّلامة منها بما آتاه الله من اعتقادٍ صحيحٍ، وإيمانٍ راسخٍ، وصدقٍ مع الله وقوَّةِ صلةٍ به تَبَارَكَ وَتَعَالَى، والتجاءٍ إليه؛ فإنَّه يفوزُ في هذا الابتلاء وينجح.

وكذلك إذا وردَت عليه دواعي الشَّهوات، فابتعد عنها، ولاذ بالطَّاعة، والإقبال على الله سبحانه، وطلبِ النَّجاة منه، والفِرار مِن دروبها وسبُلها؛ فإنَّه يفوزُ -أيضًا- بتوفيقٍ من الله عَزَّوَجَلَّ في هذا الابتلاء وينجح.

والنَّاصح لنفسه يحرصُ على زمِّها بزمام الشَّرع، وأخذها بقيوده وضوابطِه؛ لتسْلَم منَ الهلكة؛ ولتفوز في هذا الامتحان العظيم، والتَّوفيق بيد الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى وحده.

ولمَّا كان الصِّدق بهذه المكانة العليَّة، والمنزلة الرَّفيعة، تكاثرت النُّصوص في الحثِّ عليه والتَّرغيب فيه، وبيان فضله وعلوِّ منزلته، وأنَّه لا نجاةَ للعبد إلَّا بها.

وفي هذا الباب ساق المصنف رحمه الله جملةً من نصوص الكتاب والسنة الدالة على مكانة الصدق وعظيم شأنه.

قال المصنف رحمه الله تعالى:

قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ [التَّوبة:١١٩].

هذه الآية سبق أن مرَّ معنا سبب نزولها في قصَّة كعب بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لمَّا تخلَّف عن غزوة تبوك، فالله جل وعلا ختم سياق هذه القصة التي برز فيها صدق كعب والاثنين اللذين معه رضي الله عنهم، فالله جَلَّ وَعَلَا ختم سياق هذه القصَّة الَّتِي برز فيها صدق كعب مع الله، وصدقه مع رسوله صلى الله عليه وسلم، وبعده عن الكذب، هو والاثنين اللَّذين معه فختم الله سياقها بقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ أي أنَّ مَن كان كذلك، فاز بالخير، والنَّجاة، والفلاح، في دنياه وأخراه.

قال كَعْبٌ رضي الله عنه فَلَمَّا بلغني أَنَّ رَسُولَ اللهِ -صلى الله عليه وسلم- قَدْ تَوَجَّهَ قَافِلاً مِنْ تَبُوكَ حضرني بثي فَطَفِقْتُ أَتَذَكَّرُ الْكَذِبَ وَأَقُولُ بِمَ أَخْرُجُ مِنْ سَخَطِهِ غَدًا وَأَسْتَعِينُ عَلَى ذَلِكَ كُلَّ ذي رأي مِنْ أهلي فَلَمَّا قِيلَ لي إِنَّ رَسُولَ اللهِ -صلى الله عليه وسلم- قَدْ أَظَلَّ قَادِمًا زَاحَ عَنِّي الْبَاطِلُ حَتَّى عَرَفْتُ أني لَنْ أَنْجُوَ مِنْهُ بشيء أَبَدًا فَأَجْمَعْتُ صِدْقَهُ. فالصدق منجاة والصادقون ينجيهم الله بصدقهم.

وقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ هذا نداء باسم الإيمان، الَّذِي يقتضي من المؤمن أن يكون صادقًا، مُتَّقيًا لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ﴿ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ أي: تَحَلَّوا بالتَّقوى واتَّصفوا بها، ﴿وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ أي: مُتَّصفين بصفاتهم، ومُتَحلِّين بحليتهم، لتكونوا بذلكَ منهم، وهو نجاتكم وفلاحكم.

وفي قصَّة الثَّلاثة النَّفر الَّذين أطبقَت عليهم صخرة في الغار ممَّن كانوا قَبْلَنا، وقصَّتُهم في «الصَّحيحين» وغيرهما من حديث ابن عُمَر وأبي هُريرة وأنَس - رضي الله عنهم - وغيرهم، وفي روايةٍ لهذا الحديث في «صحيح البخاري» من حديث ابن عُمَر - رضي الله عنهما -، أنَّ هؤلاء الثَّلاثة عندما أطبقَت عليهم الصَّخرة قال بعضُهم لبعض: «إِنَّهُ وَاللهِ يا هَؤُلَاءِ، لَا يُنْجِيكُمْ إِلَّا الصِّدْقُ، فَلْيَدْعُ كُلُّ رَجُلٍ مِنْكُمْ بِمَا يَعْلَمُ أَنَّهُ قَدْ صَدَقَ فِيهِ».

أي مع الله - تبارك وتعالى -، والصِّدقُ مع الله أمرٌ يرجع إلى القلب وباطن الإنسان، وماذا يريد بهذا العمل وما مقصده به، ولهذا لمَّا تَوسَّل كلُّ واحدٍ من هؤلاء بصالح عمله؛ أحدُهم توسَّل إلى الله - عز وجل - ببرِّه لوالديْه، والآخر بعفَّتِه عن الزِّنا بعد تمكُّنه منه في

سابقِ رغبةٍ عظيمةٍ وحرصٍ شديدٍ، والثَّالث توسَّل إلى الله بتوفيَة الأجير حقَّه وافيًا مع إعطائه - أيضًا - ما حصل لأجرة هذا الأجير من نماءٍ وزيادةٍ، قال كلُّ واحدٍ من هؤلاء في توسُّله إلى الله - تبارك وتعالى -: «إِنْ كُنْتَ تَعْلَمُ أَنِّي فَعَلْتُ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ وَجْهِكَ؛ فَافْرُجْ عَنَّا فُرْجَةً».

فالصِّدق هو منجاةُ العبد من فتن الدُّنيا، وشدائدِها وأهوالِها ومصائبها، ومنجاتُه يوم القيامة يوم يقف بين يدي الله - تبارك وتعالى -

قال المصنف رحمه الله تعالى:

وقال تعالى: ﴿وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلصَّٰدِقَٰتِ﴾ [الأحزاب:٣٥].

هذا ذكره الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى في سياق ذكر صفات من أعدَّ الله لهم المغفرة والأجر العظيم؛ لأنَّ الآية ختمت بقوله: ﴿أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغۡفِرَةٗ وَأَجۡرًا عَظِيمَۢا﴾ [الأحزاب:٣٥]، فمن صفات هؤلاء أهل المغفرة والأجر العظيم: الصِّدق، أي في إيمانهم وأقوالهم وأحوالهم فأثنى عليهم تَبَارَكَ وَتَعَالَى بذلك.

قال المصنف رحمه الله تعالى:

وقال تعالى: ﴿فَلَوۡ صَدَقُواْ ٱللَّهَ لَكَانَ خَيۡرٗا لَّهُمۡ﴾ [محمَّد:٢١].

وهذه أيضًا من الآيات الَّتِي فيها فضيلة الصِّدق، وعظيم فضله، وأنَّ الصِّدق خيرٌ للإنسان، ومنجاةٌ له، قال: ﴿فَلَوۡ صَدَقُواْ ٱللَّهَ لَكَانَ خَيۡرٗا لَّهُمۡ﴾ أي ﴿فَلَوۡ صَدَقُواْ ٱللَّهَ﴾ في الإيمان والطَّاعة ﴿لَكَانَ خَيۡرٗا لَّهُمۡ﴾ من المعصية والمخالفة، والَّذِي لا يصدق مع الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يفارقه الخير ، والصَّادق مع الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى الخير رفيقه وملازمه، ومتحقِّقٌ له في دنياه وأخراه.

قال المصنف رحمه الله تعالى:

٥٤- (وَأَمَّا الْأَحَادِيثُ: فَالْأَوَّلُ: عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «**إِنَّ الصِّدْقَ يَهْدِي إِلَى الْبِرِّ، وَإِنَّ الْبِرَّ يَهْدِي إِلَى الْجَنَّةِ، وَإِنَّ الرَّجُلَ لَيَصْدُقُ حَتَّى يُكْتَبَ عِنْدَ اللهِ صِدِّيقًا.**

وَإِنَّ الكَذِبَ يَهْدِي إِلَى الفُجُورِ، وَإِنَّ الفُجُورَ يَهدِي إِلَى النَّارِ، وَإِنَّ الرَّجُلَ لَيَكْذِبُ حَتَّى يُكْتَبَ عِنْدَ اللهِ كَذَّابًا» مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ[1]).

قوله: «إِنَّ الصِّدْقَ يَهْدِي إِلَى الْبِرِّ» **البِرُّ**: اسمٌ جامعٌ لكُلِّ الخيرات، فالَّذِي يصدق، صدقه يهديه إلى كُلِّ خير، وإلى كُلِّ فضيلةٍ وبركةٍ في الدُّنيا والآخرة، وإذا كان الرَّجل يصدق دائمًا، ويتحرَّى الصِّدق، يكتب عند الله صِدِّيقًا، والصِّدِّيقيَّة: درجة عالية في دين الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى.

وضدُّ ذلك: الكذب، و«الكَذِبَ يَهْدِي إِلَى الفُجُورِ» أي: الأعمال السَّيِّئة القبيحة، فكُلَّما كان الشَّخص متعاملًا بالكذب، ومن أهل الكذب؛ فكذبه يهديه إلى الفجور، أي: إلى كُلِّ عملٍ سيءٍ، و«الفُجُورَ يَهْدِي إِلَى النَّارِ».

ولا يزال الرَّجل يكذب حتَّى يكتب عند الله كذَّابًا، أي: يتحرَّى الكذب، ويداوم عليه حتَّى يكتب عند الله كذَّابًا.

فالحديث فيه: التَّرغيب في الصِّدق، وأنَّه سبب لكُلِّ خير، والتَّحذير من الكذب، ومن التَّساهل فيه، وأنَّه سببٌ لكُلِّ شرٍّ، وأنَّ الكذب لا يجوز، وأنَّه حرام، ويهدي إلى الفجور، والفجور يهدي إلى النَّار.

قال المُصَنِّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ في شرحه لهذا الحديث من صحيح مسلم: «قال العلماء: هذا فيه حثٌّ على تحرِّي الصِّدق، وهو قصده، والاعتناء به، وعلى التَّحذير من الكذب والتَّساهل فيه؛ فإنَّه إذا تساهل فيه كثر منه، فعرف به، وكتبه الله لمبالغته صدِّيقًا إن اعتاده، أو كذَّابا إن اعتاده. ومعنى يكتب هنا يحكم له بذلك، ويستحقُّ الوصف بمنزلة الصِّدِّيقين وثوابهم، أو صفة الكذَّابين وعقابهم، والمراد إظهار ذلك للمخلوقين إمَّا بأن يكتبه في ذلك ليشتهر بحظِّه من الصِّفتين في الملأ الأعلى، وإمَّا بأن يلقي ذلك في قلوب النَّاس وألسنتهم، كما يوضع له القبول والبغضاء وإلَّا فقدر الله تعالى وكتابه سابق بكُلِّ ذلك»[2].

---

(١) رواه البخاريُّ (٦٠٩٤)، ومسلم (٢٦٠٧).

(٢) انظر: شرح النَّوويِّ على صحيح مسلم (١٦/ ١٦٠).

قال المصنف رحمه الله تعالى:

٥٥- (الثَّانِي عَنْ أَبِي مُحَمَّدٍ الْحَسَنِ بْنِ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَ: حَفِظْتُ مِنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ: «**دَعْ مَا يَرِيبُكَ إِلَى مَا لَا يَرِيبُكَ؛ فَإِنَّ الصِّدْقَ طُمَأْنِينَةٌ، وَالكَذِبَ رِيبَةٌ**»، رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ وقال: حديث صحيح(٣)).

قوله: «**يَرِيبُكَ**» هُوَ بفتح الياء وضمِّها، ومعناه اتركْ مَا تَشُكُّ فِي حِلِّهِ وَاعْدِلْ إِلَى مَا لَا تَشُكُّ فِيهِ.

هذا الحديث أيضًا من الأحاديث الَّتِي فيها فضيلة الصِّدق، وأنَّ الصِّدق طُمأنينة، أي: أنَّ صاحب الصِّدق مطمئنٌّ، ويحمد العاقبة بإذن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، بخلاف الكذب فإنَّه ريبة، ومجلبةٌ للشُّرور والآفات، ولا يكون صاحبه في طمأنينة، ثمَّ أيضًا مع كذبه، يرتفع وثوق النَّاس به، ويذهب عنهم اطمئنانهم إليه.

وبدأ الحديث بقوله: «**دَعْ مَا يَرِيبُكَ إِلَى مَا لَا يَرِيبُكَ**» ما يريبك، أي: ما يوقع في قلبك الرِّيبة والشَّكَّ، فأمر بأن يُترك ذلك، ثمَّ أخبر أنَّ الصِّدق طمأنينة والكذب ريبة، وأنَّ الواجب على الإنسان أن يتحرَّى الصِّدق في أقواله، وأن يحذر من الكذب؛ لأنَّ الكذب ريبة وخيبة.

قال المصنف رحمه الله تعالى:

٥٦- (الثَّالث عَنْ أَبِي سُفْيَانَ صَخْرِ بْنِ حَرْبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فِي حَدِيثِهِ الطَّوِيلِ فِي قِصَّةِ هِرَقْلَ، قَالَ هِرَقْلُ: فَمَاذَا يَأْمُرُكُمْ؟ -يَعْنِي: النَّبِيَّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ- قَالَ أَبُو سُفْيَانَ: قُلْتُ: يَقُولُ: «**اعْبُدُوا اللهَ وَحْدَهُ لَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا، وَاتْرُكُوا مَا يَقُولُ آبَاؤُكُمْ، وَيَأْمُرُنَا بِالصَّلَاةِ، وَالصِّدْقِ، وَالعَفَافِ، وَالصِّلَةِ**» مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ(٤)).

هذا الحديث فيه أنَّ الصِّدق من أخلاق الأنبياء عليهم السلام، وممَّا يدعو إليه الأنبياء، ويُرَغِّبون أممهم فيه، فنبيُّنا عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ بدأ دعوته بالتَّوحيد: «**اعْبُدُوا اللهَ وَحْدَهُ لَا تُشْرِكُوا**

---

(٣) رواه الترمذي (٢٥١٨)، وصحَّحه الألبانيُّ.

(٤) رواه البخاريُّ (٧)، ومسلم (١٧٧٣).

بِهِ شَيئًا» لأنَّ التَّوحيد رأس الأمر، وأساس الدِّين الَّذِي عليه يبنى، ثمَّ بعد ذلك كأن يأمرهم بالصَّلاة، والصِّدق، والعفاف، وصلة الأرحام، وغير ذلك من الأخلاق الفاضلة، والآداب الكاملة. وقد استدلَّ هرقلُ بهذا على صدقه صلى الله عليه وسلم وأنَّ هذا من صفات الأنبياء. ولهذا قال هرقلُ كما في بعض روايات الحديث: «هَذِهِ صِفَةُ نَبِيٍّ قَدْ كُنْتُ أَعْلَمُ أَنَّهُ خَارِجٌ، وَلَكِنْ لَمْ أَظُنَّ أَنَّهُ مِنْكُمْ، فَإِنْ يَكُنْ مَا قُلْتَ فِيهِ حَقًّا، فَيُوشِكُ أَنْ يَمْلِكَ مَوْضِعَ قَدَمَيَّ هَاتَيْنِ، وَاللهِ لَوْ أَرْجُو أَنْ أَخْلُصَ إِلَيْهِ، لَتَجَشَّمْتُ لُقِيَّهُ، وَلَوْ كُنْتُ عِنْدَهُ، لَغَسَلْتُ عَنْ قَدَمَيْهِ»(٥).

والشَّاهد: أنَّ الصِّدق من الأخلاق العظيمة الَّتِي يجب التَّحلِّي بها، وهو من صفة الأنبياء والمرسلين، ونبيُّنا عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ كان إمام صدق يدعو النَّاس إلى الصِّدق، ويحثُّهم عليه، ويُرَغِّبهم فيه، صلوات الله وسلامه وبركاته عليه.

قال المصنف رحمه الله تعالى:

٥٧- (الرَّابِع عَنْ أَبِي ثَابِتٍ، وَقِيلَ: أَبِي سَعِيدٍ، وَقِيلَ: أَبِي الْوَلِيدَ، سَهْلِ بْنِ حُنَيْفٍ وَهُوَ بَدْرِيٌّ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ، قَالَ: «**مَنْ سَأَلَ اللهَ تَعَالَى الشَّهَادَةَ بِصِدْقٍ بَلَّغَهُ مَنَازِلَ الشُّهَدَاءِ وَإِنْ مَاتَ عَلَى فِرَاشِهِ**» رَوَاهُ مُسْلِمٌ(٦)).

هذا الحديث فيه: أهمِّيَّة صدق القلوب مع الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، في عبادة الإنسان، وسؤاله، ورَغَبه، وطَلَبه أن يكون صادقًا مع الله عَزَّوَجَلَّ، وأنَّ ثمرة الأعمال بحسب صدق العبد مع الله عَزَّوَجَلَّ في عمله، وفي طلبه، وفي حاجته، وفي هذا يقول عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «**مَنْ سَأَلَ اللهَ تَعَالَى الشَّهَادَةَ بِصِدْقٍ بَلَّغَهُ مَنَازِلَ الشُّهَدَاءِ وَإِنْ مَاتَ عَلَى فِرَاشِهِ**»، لكونه صدق مع الله في سؤاله وطلبه، فمَن صدق مع الله عَزَّوَجَلَّ، بلَّغه هذه المنازل الَّتِي سأل الله أن يكون من أهلها، حتَّى ولو كان قد مات على فراشه.

---

(٥) رواه البخاريُّ (٢٩٤١).

(٦) رواه مسلم (١٩٠٩).

وهذا فيه دلالة على عظم شأن صلاح القلوب، وإصلاحها بالإخلاص والصِّدق مع الله، وغير ذلك من أعمال القلوب.

أصلح الله قلوبنا أجمعين، وهدانا إليه صراطًا مستقيمًا، إنه تبارك وتعالى سميع قريب مجيب. وصلَّى الله وسلَّم على عبده ورسوله نبيِّنا محمَّد وآله وصحبه أجمعين. والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.